الأسمار والأحاديث

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات :

بعد أيام يظهر كتاب « الأسمار والأحاديث » ، وهو كتاب صورت به ما يصطرع في الجوّ الأدبي والاجتماعي من أحلام وأوهام ، وحقائق وأباطيل .

وقد كتبت مقدمة ذلك الكتاب وأنا غضبان : فهجمت على أهل العصر بما أعتقد أنهم له أهل ، وتوجعت من بعض ما عانيت من الأصدقاء والزملاء .

ومن حق على عجلة « الرسالة » ، وهي صديق ، أن تنشر هذه المقدمة على ما فيها من قسوة وعنف ، لأنها تصور بلاءً بأهل زماني ، ولأنها كذلك تؤرخ حياة باحث له بين قراء « الرسالة » أصدقاء لا يؤذيهم أن يفتن بنفسه وبأدبه أشد الفتون .

زكي مبارك

* * *

أيها القارئ :

هل تذكر ما يحدّثك به مِراض القلوب إذ يقولون إني أثني على نفسي في فواتح مؤلفاتي ؟

أنت تذكر ذلك ، ولا ريب ، لأنهم يُعيدون هذه التهمة في كل وقت بغير حساب .

فهل ترى من حق أن أدفع هذه التهمة في فاتحة كتابي هذا ، لعلهم ينتهون ؟ !

إن الحاسدين والحاقدين لم يتركوا طريقاً إلا سلكوه ليفرّوك مني ، أيها القارئ ، ثم عادوا جميعاً خاسئين مدحورين ، وتلك عاقبة البغي والعدوان .

لقد عانوا عليّ أن أفتن أشدّ الفتون بما وصلتُ إليه من الظفر بودادك ، أيها القارئ ، فهل كانوا ينتظرون أن يَنزعوا قلبك بعدْوَى الحقد والضغن فأعيش في دنياي بلا صديق ؟

إن ودادك ، أيها القارئ ، هو الذي أرهف قلمي ، وصقل بياني ، وهو العزاء عما أعاني في دهري وزماني من ظلم وعقوق .

وما تذكرتُ حبك ، أيها القارئ ، إلا غفرتُ ذنوب الدهر وصفحتُ عن مكايد الزمان .

والآن - وقد رُفع بيني وبينك الحجاب - أحبُّ أن تعرف أني لم أمزق مودتك ولم أنهب ثقتك ، وإنما غنمتُ من مودتك وثقتك ما غنمتُ بفضل الكفاح الموصول ، وبفضل ما أنفقتُ من نور البصر تحت أضواء المصابيح ، في زمنٍ تؤخذ فيه بعض المراكز الأدبية بالخداع والتضليل ، وبيع الضمائر والقلوب .

إليك ، أيها القارئ ، أنفض أحزاني وأشجاني . ولو شئت لدللتُك على فيالق من المؤلفين في المشرق والمغرب شكَوا دهرهم كما شكوتُ ، وتوجّعوا من زمانهم كما توجعتُ ، وعانَوا من غدر الأصدقاء والزملاء بعض الذي أعاني .

فأنا لم أبتكر شكوى الزمان ، وإن كنتُ أشقى المكتوين بغدر الزمان .

أنا ما سرقتُ ثقتك ، أيها القارئ ، حتى يُنفق ناسٌ من أعمارهم ما يُنفقون لينفّروك مني ، فأنت تعرف أني قضيت أكثر من عشرين سنة في خدمة اللغة العربية خدمةً صحيحةً صادقةً ، يعجز عنها الرجال « الأفاضل » الذين يُحسنون حياكة الأقاويل والأراجيف ، والذين تشهد سرائرهم بأنهم لو كلّفوا نسخ مؤلفاتي ومقالاتي وقصائدي لانقضت أعمارهم قبل أن ينسخوا تلك الألوف المؤلفة من الصفحات الحاضرة بالأفكار والمعاني .

المخلصون في زمانك قليل ، أيها القارئ ، وهم مع ذلك لا يخدمونك إلا في ميدان أو ميدانين ، أما أنا فقد خدمتك في كثير من الميادين :

نظرتُ فرأيت اللغة العربية تتشوف إلى من يحدد مقاصد النقد الأدبي ، فألفت كتاب « الموازنة بين الشعراء » وقد طُبع مرتين . ورأيت لغة العرب تنتظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب « زهر الآداب » ، وتداركتُ في الطبعة الثانية ما فاتني تحقيقه في الطبعة الأولى ، فجاء صورةً من الأدب المخدوم بجدٍ وعناية ، ثم نشرتُ « الرسالة العذراء » مسحوبةً بدراسات وتحقيقات ، ثم عاونتُ على إخراج كتاب « الكامل » في صورة تسرُّ الناظرين . وتلك جهودٌ بذلناها لوجه الأدب ، ولم نرَ من منافعها المادية غير أطياف !

ورأيت القرن الرابع هو الفيصل بين عهدين من عهود الإنشاء ، فألفت كتاب « النثر الفني » ، الذي يُعدُّ بحق خير

كتاب فى بابه منذ العصر العباسى إلى اليوم ، والذى أرغم الحاسدين والحاقدين على الاعتراف بأن الرجل الذى كوى قلوبهم وكبُودهم لم يكن فى حياته من العابثين .

ورأيت المجتمع المصرى فى حاجة إلى من يدلُّه على هفواته الذَّوقية والأدبية والخُلُقية ، فألفتُ كتاب « البدائع » الذى أقبل عليه القراء فطُبع مرتين ، وألفتُ رسالة « اللغة والدين والتقاليد » التى أجازتها لجنة المباراة الأدبية برياسة مدير الجامعة المصرية .

وراعنى أن يجهل الناس بعض مصادر التشريع الإسلامى ، فنشرتُ رسالةً فى تحقيق نسب كتاب « الأمّ » ، وهى رسالة عدَّها السنيور نالّينو من الآيات ، وسينتفع بها رجال الأزهر الشريف .

وعزّ علىّ أن يقال إن شعراء أوربا قد تفرَّدوا بإجادة القول فى الوجدانيات فألفتُ كتاب « مدامع العشاق » ليكون شاهداً على سَبْق العبقرية العربية إلى شرح مآسى الأرواح والقلوب ، ومن قبله ألفت كتاب « حب ابن أبى ربيعة » الذى صوَّر ملاعب الأفئدة فى أيام الحجيج .

وساءنى أن يقال إن راسين هو أعظم من شرَّح عاطفة الحب فألفت كتاب « ليلى المريضة فى العراق » ، لأقيم الدليل على أن فى كتّاب اللغة العربية من يتفوق أظهر التفوق على راسين .

ونظرتُ فرأيتُ أن الجمهور شغلته الشواغل عن الدراسات الفلسفية ، فألفتُ كتاب « الأخلاق عند الغزالى » ، وكتاب « التصوف الإسلامى » ، وهما كتابان لن يجود بمثلهما الزمان . ولو قلت إن كتاب « التصوف الإسلامى » هو خير ما كان وما سيكون فى التعبير عن العبقرية العربية لكنت أصدق الصادقين .

ورأيتُ الأدب العربى يحتاج إلى من يَعْرِض محاسنَه على العقول الأوربية فألفت كتاب :

La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire

ورسالة :

L'Art d'écrire chez les Arabes au IIIe siècle de l'Hégire

وقد كان لهذين الكتابين صدًى فى البيئات الأوربية والأمريكية عند من يهمهم الوقوف على ذخائر اللغة العربية . ورأيت جمهور أهل الأدب يظنون أن إمارة الشِّعر فى السنين الخوالى لم يظفر بها غير أبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى ، فألفتُ كتاب « عبقرية الشريف الرضى » ، وهو كتابٌ رضى عنه قومٌ وسخط عليه أقوام ، ولكنه سيبقى من غرر المؤلفات الأدبية ولو كره الحاسدون والحاقدون .

ورأيت الناس فى الشرق يكادون يجهلون أسرار الحياة الأوربية فألفت كتاب « ذكريات باريس » وهو كتاب يشرح ما هنالك من صراع بين الرُّشد والغىّ والهدى والضلال .

ورأيت الأمم العربية فى شوق إلى من يحدِّد ما بينها من مختلف الصلات ومَن يعبِّر عما فى ضمائرها من آلام وآمال ، فألفت كتاب « وحى بغداد » .

* * *

أترك ما شغلتُ به نفسى من الدراسات الأدبية فى الأعوام الماضية ، فالقراء يعرفون من ذلك أكثر مما أعرف ، وإن كان يخفى عليهم أن لى مؤلفات جيدة تصدقتُ بها على بعض الأدعياء . وأنتقل إلى الحديث عن كتاب اليوم ، وهو كتاب « الأسمار والأحاديث » . فأقول :

هذا الكتاب جديدٌ من جميع نواحيه ، ولن يحتاج إلى تزكية أحد من الأصدقاء ، فهو حركة فكرية متوثِّبة تواجه القارئ فى كل صفحة ، بل فى كل سطر ، بل فى كل جملة ، إن لم أقل فى كل حرف ، وهو مجالٌ للتأمل والتفكر والتندُّر والاعتراض والاحتجاج .

فى هذا الكتاب صُور غريبة لعقول المصريين ، وعقول من عرفت من الفرنسيين ، وسيشقى به ناس ، ويسعد ناس : لأنه سجَّل طوائف من أوهام العصر الحاضر أدقّ تسجيل .

أنا أعرف أن موتى يوم يحينُ سيكون فرصةً لقوم كدَّرت صفوَهم حياتى . ولكنى مع ذلك راضٍ عما صنعتُ حين تصدقتُ تخلُّدتُ أسماءً لا تستحق الخلود من أمثال السادة : فلان وعلان وترتان ! وهل فى التصدق على الجاحدين من بأس ؟ أولئك قومٌ مَنَّ الله عليهم بالوجود ، وأمكنهم من النعيم بالأنوار والظلمات ، وسمح لهم باستنشاق الهواء : فليس من الكثير أن أدَّعى أنهم يقرأون ويفكرون ! !

فى هذا الكتاب تنويهٌ بأشخاص يودُّون لو تميت عيونهم ، وصمت آذانهم : فلا يرون وجهى ولا يسمعون أخبارى ، ولكنهم سيعرفون أنى أكرم منهم وأشرف ، لأنى سجلت أسماءهم فى كتاب سيغلَّف من جلود أحفادهم وأسباطهم بعد حين

بقيت كلمة عن أسلوب هذا الكتاب :

وأنا أعتقد بلا زَهوٍ ولا كبرياء أنى وصلتُ باللغة العربية إلى ما كانت تطمح إليه من « البيان »

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيُّد أنى خلقت عُذوبة الأسلوب فى اللغة العربية ، وقد صار البيان عندى طبيعة أصيلة لا يعتريها تكلف ولا افتعال ، وما أذكر أنى عرفت التسويد والتبييض فيما أَلَّفت من الكتب أو نشرت من المقالات بعد زمن التمرين الذى سبق سنة ١٩١٦

وما أعرف بالضبط ما هى خصائص أسلوبى : لأنى أصدر فيه عن السجية والطبع ، ولكنى أعرف بالتأكيد أن الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه يرى الحياة وجهاً لوجه ، ويشهد صراع الأحلام والأوهام ، والآراء والأهواء ، والحقائق والأباطيل

تلك صفحات من أعمالى الأدبية ، فيها القديم والحديث ، فهل ترانى زِدتُ أو أسرفت ؟

وأنت مع ذلك تعرف أنى وقفتُ لأعداء العروبة والإسلام بالمرصاد فزَّقتُ أوهام الخوارج على العروبة والإسلام شرَّ ممزَّق ، ودَحرتُ من سوَّلت لهم أنفسهم أن يتطاولوا على ماضى الأمة العربية ، وكنت دليلك فى التعرف إلى مآثر العرب فى المشرقين والمغربين ، وعاديت من أجل الحق رجالاً يضرون وينفعون ، ويقدمون ويؤخرون ، فكان اعتصامى بحبل الحق هو أقوى ما تدرَّعت به لا تقاء مكايد الناس ومكاره الزمان

ولم أخدعك ، أيها القارئ ، فيما تعرضت لشرحه من الحقائق الأدبية والفلسفية : فلم أُهيب مساقط غضبك راجياً أن تلمس مواقع هواك ، وإنما صدقت كل الصدق فرآنى فريقٌ من الملحدين ، ورآنى فريق من المؤمنين ، ونسبنى قوم إلى المُجَّان ، وعدَّنى قوم من الصوفية ، وما كنت من أولئك ولا هؤلاء ، وإنما أنا سار يبحث عن عَلَم الهداية فى بيداء الوجود ، وما بينى وبين الله لا يعرفه عدوٌ ولا صديق ، وإنما علمُه عند علاَّم الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنا أتقرب إليه بالصدق فى درس شرائع الهدى وذرائع الضلال

أيها القارئ !

أترانى أحسنتُ الدفاع عن نفسى ؟

أترى أن الذين يضيِّعون أعمارهم فى مناوشتى ومحاربتى لم يستطيعوا حرمانى من ودادك ؟ كم تألمتُ وتوجعت من مكايدة مَن أُعاصر من الرجال ، وكنت فى أحرج أوقات الضجر والغيظ لا أملك غير التعزِّى بهذه الكلمات :

« لِىَ قُرَّاء أوفياء فى أكثر الأقطار العربية والإسلامية ، وهم عَوْنى على مصاولة الدهر ، ومكايدة الزمان »

أما بعد فأنت الصديقُ الحق أيها القارئ ، ولو شئتُ لقلت إنك أعزُّ علىَّ من سائر أصدقائى وأصفيائى لأنك تفهم عنى أكثر مما يفهمون ، وقد تفوقهم فى رعاية العهد وحفظ الجميل

أيها القارئ !

لم يبق لى بعد الله غير ودادك وعَطفِك . ودنيا الأدب بدون حبك سرابٌ فى سراب

ولولا الثقةُ بك أيها القارئ لكسَرتُ قلمى ورجعت إلى صحبة الفأس والمحراث فى سنتريس ، إن كان مهر الليالى من أجلك أبقى لى من القوة ما أستطيع به الرجوع إلى صحبة الفأس والمحراث

ويرحم الله الشباب الذى بدَّدته فى صحبة الكتاب والدواة والقلم والقرطاس !

زكى مبارك

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و ٧٠ قرشا كل من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة فى مجلدين .

والمجلد الأول من السنة السابعة

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجستوس الفرنساوى بشارع رمزى نمرة ٤٦ شارع المباغ خيفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع الاضطرابات الناشئة عن الأمراض السرية والشذوذ التناسلى والعقم عند الرجال والنساء ويعالج الشاب والشيخ فى المعهد . ويعالج بصفة عامة : بزيادة الحاسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نتائج بالمراسلة للقطر بعد أخذ تحرير على الجرعة الأسبوعية البسيطة المرسلة على ١٤١ سؤالاً والتى يمكن الحصول عليها بقرش